

تجليات البعد الديني في بيان أول نوفمبر 1954م

-قراءة في البيان-

أ. طاهري فاطمة

جامعة محمد بوضياف/المسيلة - الجزائر -

ملخص:

يعتبر بيان أول نوفمبر 1954 أهم وثيقة إيديولوجية من ضمن وثائق الثورة الجزائرية و لا يزال محتفظا بقيمته التاريخية على الرغم من مرور ستة عقود من الزمن على صدوره، و رغم تعدد الدراسات حوله إلا أنه من الصعب على الباحث الواحد أن يحيط بكل مفاهيم البيان و يقدم شرحا كافيا له، لذا يعالج المقال بين أيدينا جانبا واحدا من الجوانب المتعددة التي تضمنها البيان، و هو الجانب الديني فقد حملت هذه الوثيقة المرجعية جملة من المبادئ و القيم حتى و إن كانت ذات طابع إنساني أو حضاري إلا أنها مستمدة من روح الإسلام و قيمه، فهي نابعة من أصالة و ثقافة المجتمع الجزائري المسلم.

تجاوزت الثورة الجزائرية في مفهومها و أهدافها المفهوم الأوروبي للمصطلح، الذي برز مع اندلاع الثورة الفرنسية سنة 1789م، الذي يعني تغيير نظام الحكم بالقوة، و هو ما اشتركت في معناه الحركات التحررية التي ظهرت في العديد من دول العالم خلال القرن العشرين، و التي كان هدفها تحطيم الاستعمار و إحلال نظام وطني بدله، و من ثم فالثورة التحريرية إلى جانب ذلك كانت تهدف إلى إعادة البعد الوطني و الحضاري و الديني و اللغوي للدولة الجزائرية، و استرجاع قيمها المرتبطة بالحضارة العربية الإسلامية، قبل تعرضها للاحتلال الفرنسي.

فالشعب الجزائري تعرض لأبشع هجمة استعمارية استهدفت مقوماته، و وظفت فيها الروح الصليبية لقهري الإسلام و تحجيم دوره، و تفتيت الشخصية الوطنية و التشجيع على التجنيس و التمسح، و يقدر ما كانت هذه الهجمة شديدة الوطأة على الشعب الجزائري بقدر ما كان ذلك باعثا له على وجوب التحرر، إذ تمسك الجزائريين بالإسلام و قيمه هذه القيم التي ترسخت في نفوسهم منذ انعم الله عليهم بالإسلام منذ قرون، لذلك نجد البعد الديني حاضرا و بقوة في الثورات و الانتفاضات الشعبية خلال القرن التاسع عشر، فقد شكل هذا البعد الدافع الأساسي للدفاع عن الوطن ضد الاستعمار الفرنسي، و حافظ على الهوية الوطنية و الوجه العربي الإسلامي للجزائر، كما كان حاضرا في مختلف تشكيلات الحركة الوطنية خلال النصف الأول من القرن العشرين، و خلال الثورة التحريرية، و هو ما نلمسه في نصوص الثورة و موثيقها لعل من أهمها بيان أول نوفمبر 1954م، و عليه يمكننا طرح الإشكالية التالية: هل حمل بيان أول نوفمبر 1954م بعدا دينيا إسلاميا؟ و ما هي تجليات هذا البعد؟.

حملت نصوص الثورة و موثيقها العديد من الأبعاد و الخصائص و القيم التحررية و الإنسانية و الحضارية و الدينية، و لئن فقدت بعض هذه النصوص قيمتها بفقدان ظروفها و وقتها الذي صدرت فيه، فإن بيان أول نوفمبر 1954⁽¹⁾مزال و سيبقى محتفظا بقيمته التاريخية إلى يومنا هذا، إذ يعتبر أهم وثيقة إيديولوجية من ضمن وثائق الثورة الجزائرية نظرا لعدة اعتبارات منها: أن البيان شكل خلاصة مكتنفة نظرية و عملية لنتائج التجربة التاريخية للشعب الجزائري بعد أكثر من قرن و ثلث القرن من الكفاح المتواصل، و تشخيص نقدي لأسباب القوة و الصمود و عوامل الضعف و الخلل، و خطة إجرائية لإنقاذ الجزائر من وضعية لا تطاق، أوصلت الشعب الجزائري لحافة الهلاك، لذا نجد معالم نظرية التحرير، و قواعد المنهج الثوري في هذا البيان التأسيسي، الذي حمل الملامح الأساسية و الخطوط العريضة لمشروع مجتمع له هويته و خصوصياته الوطنية و الحضارية، و بناء دولة مستقلة⁽²⁾.

و رغم أهمية البيان في مسار النضال الوطني للشعب الجزائري ضد الاستعمار الفرنسي، إلا أنه يوجد من المؤرخين من يعتبره مجرد وثيقة كتبت على عجل غلب عليها الطابع الصحفي أكثر كما لم يجب على بعض النقاط بوضوح خاصة ما تعلق بالهوية الوطنية⁽³⁾، إلا أن البعض الآخر يعتبره عقد ازدياد الجزائر الجديدة⁽⁴⁾.

ترجمة البيان و ما وقع فيها من مغالطات: من المعروف أن بيان أول نوفمبر 1954 قد كتب باللغة الفرنسية ووزع كذلك على الشعب الجزائري صبيحة الفاتح نوفمبر غير أنه يوجد التباس حول مسألة تعريب البيان من قام بتعريبه؟ و متى؟

حسب شهادة أحمد سعيد لأبو القاسم سعد الله سنة 2004 ذكر أن مصالح إذاعة صوت العرب هي من قام بترجمة البيان و تمت إذاعته ثم نشر في الصحف المصرية، كما توجد شهادة أخرى لمحمد يزيد مفادها أن فريق من السياسيين المغاربة قاموا بترجمة البيان بالقاهرة و هم الرشيد إدريس و بولعراس و إبراهيم طوبال من تونس، و عبد الكريم غلاب و عبد المجيد بن جلون و ابن امليح من المغرب، و هذا يعني وجود ترجمتين لبيان أول نوفمبر⁽⁵⁾ كما قامت جبهة التحرير الوطني بتعريب البيان و لكن لا نعلم من قام بنقله للعربية، ونشرته بجريدة المقاومة و جريدة المجاهد عدة مرات، أما النسخة المعربة المعتمدة رسمياً من قبل الدولة الجزائرية المستقلة هي النسخة التي وقع الاتفاق عليها من طرف اللجنة الوطنية التي أسستها وزارة المجاهدين حيث قامت هذه اللجنة بجمع عدد من الترجمات و أخضعها للمقارنة فيما بينها، لتنتهي في الأخير لاختيار نسخة واحدة و هي المتداولة اليوم⁽⁶⁾.

و يقر الكثير بأن ترجمة بيان أول نوفمبر لم تكن ترجمة دقيقة مما أدى إلى تشويه المعنى المقصود، وأحدث كثيراً من الارتباك في الوثيقة إلى درجة أنه أصبح من الصعب تفسير العديد من المواقف المعبر عنها بعكس الصواب و ذلك حسبما يذكر محمد العربي الزيريبي الذي قام بإعادة ترجمة البيان إلى العربية و تدارك ما وقع من خطأ في الترجمات السابقة - حسبما يذكر - معتمداً على النسخة الأصلية المنشورة بالعدد الخاص من جريدة المجاهد⁽⁷⁾، فالجنة الوطنية التي كلفت بمهمة التحقيق في النسخ المتعددة للبيان لم ترجع للأصل المكتوب باللغة الفرنسية، و إن كانت جبهة التحرير الوطني خلال الثورة معذورة عن ما وقع من عدم الدقة في الترجمة بحجة ضيق الوقت فقد كان الهدف هو تنبيه الشعب بأن الجزائر دخلت مرحلة الكفاح المسلح و أن واجب الجميع هو الالتحاق بصفوفها، فأى عذر يلتمس لاستمرار هذه المغالطات في الترجمة بعد الاستقلال؟.

و من بين الكلمات التي أدى سوء ترجمتها إلى تغيير المعنى المقصود منها و هو ما أضعف نص البيان: proclamation التي عربت بالإعلان بدلا من البيان ، و le bien fondé de nos vues

التي عبرت بمقومات وجهة نظرنا الأساسية بدلا من صواب رؤيتنا، و les patriotes التي عبرت بالمواطنين بدلا من الوطنيين، و la charte التي عبرت وثيقة بدلا من ميثاق، و غيرها من الأخطاء التي سهلت فيما بعد لتبرير الكثير من الأفكار التي تتناقض مع إيديولوجية الثورة فرغم أن هذه الأخطاء يراها البعض بسيطة كما يقول الزبيري "إلا أن النتائج المترتبة عليها قد سهلت الانحراف الإيديولوجي و رسخت في أذهان الناس مجموعة من المفاهيم التي تتناقض، في جوهرها مع المرجعية الفكرية التي انطلق منها مفجرو ثورة أول نوفمبر 1954"⁽⁸⁾.

مضمون البيان: يلاحظ القارئ لبيان أول نوفمبر 1954م أنه يضم⁽⁹⁾ أربعة محاور أساسية و هي:

أ- الظروف و العوامل الظرفية التي دفعت إلى صياغته، و تقديمه كإعلان و بلاغ لاندلاع الثورة التحريرية، باسم جبهة التحرير الوطني.

ب- تحديد طبيعة الثورة و أهدافها و وسائل كفاحها، و إطارها الوحدوي المغاربي، مع تأكيد صعوبة المهمة و عظم المسؤولية، لكن نتيجة النصر آت لا محالة، و هو محور يرسم و يحدد المعالم الكبرى للدولة الجزائرية المستقبلية، و أسسها الوطنية.

ج- إبراز طبيعة المعركة مع المستعمر الكولونيالي الامبريالي، و إعلان شروط التسوية الممكنة معه، مع تقديم الضمانات الكافية لمصالحه المشروعة، الثقافية و الاقتصادية، و كذلك لرعاياه من المستوطنين و حلفائه الآخرين من الجزائريين وغيرهم.

د- إعادة القضية " الثورة " إلى حضانها الطبيعي، و هو الشعب الجزائري -كما استفتح البيان و ختم- و تحميله مسؤوليته في النجاح و تحقيق النصر، و الإعلان عن الاستعداد للتضحية الكاملة لأجل هذه القضية⁽¹⁰⁾.

المبادئ الدينية في بيان أول نوفمبر: احتوى بيان أول نوفمبر 1954م على جملة من المبادئ و القيم حتى و إن كانت ذات طابع إنساني أو حضاري إلا أنها مستمدة من روح الإسلام و قيمه، فهي نابعة من أصالة المجتمع الجزائري المسلم، و أهم هاته المبادئ نذكر:

1- مبدأ السلم:

يهدف الدين الإسلامي كعقيدة و شريعة إلى تحقيق السلم و الأمن في المجتمع الإنساني، فالسلام من المبادئ التي عمق جذورها الإسلام في نفوس المسلمين فأصبح جزء من كيانهم و عقيدة من

عقيدتهم، أما الحرب و القتال أمر طارئ لا يلجأ إليه إلا للدفاع عن المسلمين حينما يكون هناك اعتداء عليهم أو ظلم لهم أو فتنة لهم في دينهم، و هو ما ينطبق على الشعب الجزائري الذي و كما ذكرنا سابقا تعرض لمسخ و طمس هويته.

ورغم ذلك بيان أول نوفمبر 1954م لم يكن دعوة للعنف أو الحرب، بل هو دعوة للسلم و الأمن إذ نص البيان على: ".....و تحاشيا للتأويلات الخاطئة و للتدليل على رغبتنا الحقيقية في السلم، و تحديدا للخسائر البشرية و إراقة الدماء، فقد أعدنا للسلطات الفرنسية وثيقة مشرفة للمناقشة، إذا كانت هذه السلطات تحدها النية الطيبة، و تعترف نهائيا للشعوب التي تستعمرها بحقها في تقرير مصيرها بنفسها"⁽¹¹⁾، و هي دعوة صريحة للسلم و تفادي العنف مصداقاً لقوله تعالى: ﴿إِنِ اعْتَرَفْتُمْ فَلَمَّ يِقَاتِلُوكُمْ وَأَلْفُوا إِلَيْكُمْ السَّلْمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾⁽¹²⁾، و كذلك قوله تعالى في الآية الكريمة: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾⁽¹³⁾ فقد تجنب البيان إراقة الدماء، و كل ما ينجم عن النزاعات المسلحة من آثار نفسية و خسائر بشرية و مادية، و تحقيقاً لذلك فإنه جنح إلى السلم بتقديم مقترحات للطرف الفرنسي داعياً إياه إلى الجلوس إلى طاولة المفاوضات و حل النزاع سلمياً و على أسس سلمية معلنا إطار الثقة الذي يتعين أن تتم فيه المفاوضات الجادة و الذي يستوجب ما يلي:

-الاعتراف بالجنسية الجزائرية بطريقة علنية و رسمية

-فتح مفاوضات مع ممثلين المفوضين من طرف الشعب الجزائري على أسس الاعتراف بالسيادة الجزائرية وحدة لا تتجزأ.

-خلق جو من الثقة بإطلاق سراح جميع المعتقلين و الكف عن كل مطاردة للقوات المكافحة.

بالمقابل تعهدت جبهة التحرير الوطني على الحفاظ على جميع المصالح الفرنسية⁽¹⁴⁾، و بذلك عبر بيان أول نوفمبر عن مبدأ السلم لفضا و منهجاً، حيث قدمت التزامات و ضمانات للجالية الأوربية المقيمة في الجزائر و وضعها بعد استرجاع السيادة الوطنية إذ نص البيان على أن: "جميع الفرنسيين الذين يرغبون في البقاء بالجزائر يكون لهم حق الاختيار بين جنسيتهم الأصلية و يعتبرون بذلك كأجانب تجاه القوانين السارية، أو يختارون الجنسية الجزائرية وفي هذه الحالة يعتبرون كجزائريين بما لهم من حقوق و ما عليهم من واجبات"⁽¹⁵⁾، و هو ما يؤكد النزعة السلمية للبيان، وهذا ما أكدته جريدة المقاومة الجزائرية

على أن الجزائريين "يدعوهم القرآن إلى أن يسالموا من سالمهم و يوادوا من وادهم، كما ينههم على أن لا يستكينوا لمن يعتدي عليهم و يعني إذلالهم"⁽¹⁶⁾.

و رغم سلمية الثورة الجزائرية من خلال ما نص عليه بيانها التأسيسي، فقد جاء الرد سريعاً بأن المفاوضات الوحيدة هي الحرب لتقابل بذلك دعوة السلم بموقف تبني منذ البداية المراهنة على حسم النزاع حسماً عسكرياً، و بذلك فإن اللجوء إلى إعلان الثورة ضد الوجود الاستعماري هو نتيجة موضوعية و حتمية لهذه السياسة الاستعمارية، و من باب الدفاع عن النفس كما تصورها الآية الكريمة ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَهَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾⁽¹⁷⁾ و قوله تعالى أيضاً ﴿فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾⁽¹⁸⁾، إذ كان لابد من رفع الظلم عن الشعب الجزائري و لا سبيل لذلك إلا بحمل السلاح لرد العدوان خاصة أمام تعنت الاستعمار الفرنسي و رفضه الدخول في المفاوضات.

و قد أكدت الأحداث المتلاحقة انتصار نهج جبهة التحرير الوطني و انحاز الرأي العام العالمي لطروحاتها السلمية، مما جعل الطروحات الاستعمارية تتراجع و أساليبه القمعية تنكشف لدرجة أضحت فرنسا الدولة الكبرى مهددة بالانهيار و كان النصر في النهاية للمبادئ السلمية التي جاهد من أجلها الشعب الجزائري⁽¹⁹⁾.

2- مبدأ الوحدة:

رفع الإسلام من مكانة الوحدة و اعتبرها من الثوابت الأساسية التي يرتكز عليها المجتمع المسلم، و قد جاءت النصوص القرآنية صريحة و عديدة في هذا الشأن، كقوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً﴾⁽²⁰⁾، و قد تضمنت هذه الآية الكريمة الدعوة إلى توحيد الكلمة و جمع الشمل و التماسك حول هدف واحد، و هو تحقيق الاستقلال بالنسبة للشعب الجزائري.

و بيان أول نوفمبر 1954 يشير إلى مبدأ الوحدة و يدعو له و ذلك على المستويين الداخلي الخارجي، فعلى المستوى الداخلي دعا البيان إلى تجاوز الصراعات التي عرفتها الحركة الوطنية قبيل اندلاع الثورة التحريرية إذ نص على: "... و نتيج الفرصة لجميع المواطنين الجزائريين من جميع الطبقات الاجتماعية، و جميع الأحزاب و الحركات الجزائرية، أن تنضم إلى الكفاح التحريري دون أدنى اعتبار آخر"⁽²¹⁾، و هي دعوة صريحة للإتحاد و تجسيدا فعليا لوحدة الهدف.

كما نص البيان أيضا على: "...القضاء على مخلفات الفساد و روح الإصلاح التي كانت عاملاً في تخلفنا الحالي، و تجميع و تنظيم الطاقات السلمية لدى الشعب الجزائري لتصفية النظام الاستعماري"⁽²²⁾، ليؤكد البيان مرة أخرى على فشل السياسة التي اعتمدها الحركة الوطنية، موصيا بالابتعاد عنها و الدخول بسرعة في الطريق السليم بواسطة العمل الثوري كأسلوب أمثل لتوحيد الشعب الجزائري المؤمن بالفعل الثوري، لما للوحدة من أهمية قصوى فهي السلاح فعال لحوض غمار الثورة، لذلك جاءت تسمية الحركة الجديدة **جبهة التحرير الوطني** على هذا الأساس، إذ تضم جميع الجزائريين على اختلاف انتماءاتهم الحزبية و أوضاعهم الاجتماعية دون قيد و لا شرط، و هذا الفكر لا يعتبر الوحدة وسيلة فقط و إنما يعتبرها هدفاً كذلك يضمن ديمومة الحركة الجديدة⁽²³⁾.

وقد ظل مبدأ الوحدة يمثل صمام الأمان للثورة الجزائرية، وهو المبدأ الذي تكسرت دونه كل محاولات الهادفة إلى إيجاد قوة ثالثة قصد زعزعة و ضرب إفراد الجبهة كتنظيم و ممثل شرعي و وحيد للثورة و الشعب الجزائري، كما يعتبر هذا المبدأ من أهم خصائص الثورة التحريرية مقارنة بباقي حركات التحرر و التي لم تتمكن من الحفاظ على وحدتها مما سهل عمليات اختراقها و تفجير تناقضاتها الداخلية⁽²⁴⁾.

أما على **المستوى الخارجي** فقد أشار البيان إلى وحدة بلدان شمال إفريقيا حيث نص في أهداف الثورة الخارجية على "تحقيق وحدة شمال إفريقيا في داخل إطارها الطبيعي العربي و الإسلامي"⁽²⁵⁾، و فيه أيضا إشارة إلى الوحدة العربية، و عليه فإن الوحدة في مفهوم محرري البيان سواء كانت هذه الوحدة وطنية أو جغرافية تشير إلى الدين الإسلامي الذي يشكل وحدة هذه الشعوب انطلاقاً من تاريخها و مصيرها المشترك مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾⁽²⁶⁾.

3- موقف البيان من الطوائف الدينية:

لم يكن بيان أول نوفمبر 1954 تحريضياً و لا عدائياً كما سبق و أن ذكرنا، بدليل أنه دعا إلى حفظ و حماية حقوق الأقليات الدينية، حيث نص في أهدافه على: "احترام جميع الحريات الأساسية دون تمييز عرقي أو ديني"⁽²⁷⁾، فسمح بذلك بجرية الاعتقاد الديني داخل الدولة الجزائرية المستقلة المستقبلية، و هو أيضاً تطبيق لمبادئ و تعاليم الدين الإسلامي، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾⁽²⁸⁾، و قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْفِرُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾⁽²⁹⁾ فالدولة الإسلامية لم تنكر على مواطنيها غير المسلمين

حقهم في العيش آمنين داخل حدودها لهم ما للمسلمين و عليهم ما على المسلمين، كما لم يعرف التاريخ الإسلامي تقاليد الاستئصال الديني أو العرقي، و التي عرفتها التقاليد الغربية و العلمانية⁽³⁰⁾.

ومن أسباب الجهاد في الإسلام، و الذي رفعت رايته الثورة الجزائرية ضد الاستعمار الفرنسي، هو الدفاع عن حرية العقيدة، فخرية العبادة لليهود و النصارى و غيرهم كفلها الإسلام لهم، بل و جعل حماية أماكن عبادتهم ضمن مسؤوليات المسلمين مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَأَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهْدَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾⁽³¹⁾، كما يحرم مس رجال دينهمو أطفالهم و نساءهم و رجالهم الذين لم يشاركوا في العدوان على المسلمين، فإسلام شرعا يوفر لكل هؤلاء الحرية الدينية التامة، فقبول بيان أول نوفمبر 1954 بتعدد الديانات هو نابع من روح الإسلام و قيمه.

كما أكد البيان أيضا على أن الهدف من هذه الثورة التي يدعو لها "موجهة فقط ضد الاستعمار الذي هو العدو الوحيد الأعمى، الذي رفض أمام وسائل الكفاح السلمية أن يمنح أدنى حرية"⁽³²⁾، فالثورة قامت بهدف الحصول على الحرية و استرجاع مواطنة الجزائري بصرف النظر عن عقيدته الدينية، كما تستهدف كذلك محاولة القضاء على إحدى مخلفات الاستعمار في مجال التمييز بين سكان الجزائر بين مستوطنين أوروبيين و الجزائريين الذين قضى على هويتهم الوطنية لتحصن وصفهم بالمسلمين، و هو ما تعكسه بوضوح الضمانات المقدمة في بيان أول نوفمبر و التي ليس فيها ما يفيد التمييز على الأساس الديني⁽³³⁾، كما أن جبهة التحرير من خلال كتاباتها و خطبها رسخت ما جاء في البيان أكثر حيث وجهت عدة مرات نداءات مهدئة للأقليات الدينية، وأعربت عن موقفها الذي يدعو إلى ضرورة التعايش المنسجم بين مختلف الطوائف الدينية التي تعيش في الجزائر، كالمقال الوارد في جريدة المقاومة و مما جاء فيه: "... فالجزائر إذا ثارت على الاستعمار الفرنسي الباغي لفك القيود و استرجاع الحق المغصوب في السيادة و الكرامة مضحية في سبيل ذلك بالنفس و النفيس، لم تخالف في ذلك قوانين السماء و لا مبادئ الإنسانية النبيلة و لم تكن مدفوعة في ثورتها العادلة هذه بدافع عصبية دينية أو عنصرية جنسية كما تردد الأبواق الاستعمارية ذلك حيننا بعد حين تبريرا لعدوانهم، فالجزائريون بحكم دينهم منبهون على أن يجاروا أحدا لأجل هذه الدوافع الخسيسة أو الأغراض الدينية..."⁽³⁴⁾.

و مما يؤكد هذا الموقف ما جاء في مجلة ميدي (midi) صحيفة (la campagne de Jesus) حملة يسوع: "يجب أن نقوله بقوة، فبالرغم من الانتقارات المحلية للتعصب البدائي الذي يمكن أن يعزى إلى الجهل أو الحقد اللامعقول: فإنه ليس هنالك من حرب مقدسة في مأساة الجزائر اليوم"، فالآباء البيض يعرفون ذلك جيدا، لأنهم يرون أن مدارسهم لا تحرق، وهؤلاء الراهبات اللواتي إذ يصادفن

جاعات الثوار و الفلاحين في الطريق، يرين التحية تقدم لهن باليد، مع كلمة: " صباح الخير أيتها الأخت"، فليس الإسلام هو الذي يجارب المسيحية، بل هو رجال يناضلون لكي يتقاسمون مع ما يعتبره المسيحيون قبل كل الناس أهم من الحياة نفسها: أي الحرية في أن يكونوا بشراً"⁽³⁵⁾.

فجبهة التحرير كما ذكر سليمان الشيخ عرفت كيف تنجو من خطر التعصب الديني⁽³⁶⁾، من خلال استنادها على الدين الإسلامي في حد ذاته فيما يخص مسألة الأقليات الدينية، فالإسلام دين لمعتقديه فقط، أما لغيرهم فهو نظام، فهذا النص يدل على التجسيد الفعلي لمبادئ بيان أول نوفمبر 1954، و ذلك بشهادة الطرف الآخر، كما أن البيان فيه إقتداء بسنة الرسول صلى الله عليه و سلم من خلال وثيقة المدينة التي وضعها النبي بين المسلمين و طوائف المدينة، فقد حاول بيان أول نوفمبر صهر الجميع رغم التنوع العرقي في مجتمع مدني مكون للدولة الجزائرية المستقلة.

4- الدفاع عن الوطن:

يعتبر الدفاع عن الوطن بالنسبة للمسلم واجبا دينياً، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَهَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾⁽³⁷⁾، وقد دعا بيان أول نوفمبر للدفاع عن الوطن و حمايته لتحقيق الاستقلال، أو ما يسمى بالتمايز عن أصحاب الديانات الأخرى في كل شيء تفكيراً و منهجاً في الحياة....إلخ، و الذي دعا إليه الإسلام، فالاستعمار الفرنسي منذ احتلاله للجزائر عمل على القضاء على هذا التمايز و كل المظاهر الإسلامية لتحل محلها المظاهر الأوروبية.

لنا جاء بيان أول نوفمبر 1954م ليؤكد هذا التمايز حيث نص على: " إقامة الدولة الجزائرية الديمقراطية الاجتماعية ذات السيادة، ضمن إطار المبادئ الإسلامية"⁽³⁸⁾ و لا يتحقق الهدف الذي هو الاستقلال إلا بالجهاد الذي يعتبر أهم ركائز الدين الإسلامي، و رغم أن البيان لم يتضمن دعوة صريحة للجهاد، إلا أن الشعب الجزائري هو الذي أعطى للثورة هذا البعد الديني الجهادي، و يذكر مالك بن نبي أن " الفلاح الجزائري هو الذي أعطى للثورة محتوى مفاهيمياً في عبارات جد بسيطة، وقد وضع فيها شعوره بالتضحية، وشعوره بالمقدسات، وهو الذي جعل منها معركة مقدسة...كان الفلاح يناضل من أجل استقلال الجزائر و هو على وعي بأنه شخص عربي و إنسان مسلم"⁽³⁹⁾، و نستحضر هنا شهادة المجاهد محمد صالح الصديق بوسلامة حيث ذكر أن بيان أول نوفمبر كان دعوة " لمن أراد أن يحمل لقب مجاهد على شرط أن ينتزع من نفسه كل لقب و يأتي فردياً و لا يحمل معه إلا نية الجهاد في سبيل الله و الوطن"⁽⁴⁰⁾، فالإنسان الجزائري البسيط هو الذي فسر العمل و الكفاح المسلح الذي نص عليه بيان

أول نوفمبر على أنه دعوة للجهاد المستمد من الدين الإسلامي الذي يشكل كما يقول سليمان الشيخ "محرك خضم للوطنية المحاربة"⁽⁴¹⁾.

و اللافت للانتباه أن مفهوم الجهاد و مفهوم الوطنية من المفاهيم المتداخلة في الثورة الجزائرية، و المضمرة في ذات الشعب الجزائري، و من الصعوبة الفصل بينها ومعرفة الدافع وراء التحاق الجزائريين بصنوف الثورة، هل هو بدافع ديني محض؟ أم هو تعبير عن نضج الشعور الوطني لدى الجزائريين؟.

يعتبر انضمام المجاهدين للثورة بدافع الحصول على الشهادة و نيل الحرية معا و هنا تقدم الشهادة على الحرية فالإنسان مما كان لا يرضى أن يموت من أجل أن يتمتع غيره من الأحياء بالحرية فلولا الشهادة التي تضمن للشهيد النعيم في الآخرة لقل المجاهدون حسبا يذكر محمد صالح الصديق الذي يرى أن " : الشهادة بإشراقها المثيرة المغربية، هي التي تدفع إلى المعركة بقوة، و تظل الحافزة و الدافعة، و المفجرة للطاقة المعنوية في أعماق الإنسان، حتى يسقط شهيدا و البسمة تتراقص على ثغره"⁽⁴²⁾ فالجزائريين (الجاهل، العالم، الأمي، المتعلم، الغني، الفقير، الصغير و الكبير) جمعهم كلمة الجهاد فكان شعارهم النصر و نيل الاستقلال أو الاستشهاد و دخول جنات النعيم مصداقا لقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلْ أحياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (169) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (170) يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ (171) ﴾⁽⁴³⁾.

و للتدليل على تداخل مفهوم الجهاد و الوطنية طبيعة الأسئلة التي كانت تطرح على الجزائريين حسب ما يذكر الحاج لخضر قبل الالتحاق بصنوف جبهة التحرير الوطني و من بينها

1. هل تعلم انك سستلتحق بالثورة لتستشهد في سبيل الوطن و الدين و اللغة.
2. تلتزم بالصلاة في وقتها و تجعل في تصورك قوة الله فوق كل القوى و هو معنا حيث أمرنا أن نكونو نبتعد حيث نهانا ألا نكون.
3. لك الحق في الشهادة وحدها⁽⁴⁴⁾.

كما أنه من بين الشروط اللازمة للالتحاق بصنوف جبهة التحرير الوطني يجب على المجاهد أن يؤدي القسم أمام المجاهدين حيث يمد يده على المصحف الشريف و يقول " : أقسم بالله أن أكون و فيا للثورة المسلحة و ألتزم بجد و إخلاص لوطني حتى النصر أو الاستشهاد"⁽⁴⁵⁾، فالدافعين يكملان بعضها البعض، فالجهاد في سبيل الله الغاية منه هي تحرير الدين و الوطن⁽⁴⁶⁾، فروح الجهاد و الرغبة في نيل الشهادة هي التي جعلت المجاهد الجزائري يجابه الدبابات و الطائرات

و يقتحم القواعد المحصنة ببنادق الصيد القديمة، و هو أن يقبل الاستشهاد تحت التعذيب دون أن يحصل منه العدو على أية كلمة سر، و أن يدفع بالمسبل إلى اقتحام المعارك الطاحنة بيدين عزلاوين ليفتك منها قطعة السلاح كي يصبح بعد ذلك عضوا في صفوف جيش التحرير الوطني، و روح الجهاد هي التي جعلت الأم الجزائرية تزغرد أمام جنود الإحتلال على وحيدها الذي أوتي لها به شهيدا مخضبا بدمائه تعبيرا على سعادتها بمشاركته في ثورة الجهاد و فوزه بالوعد في عالم الخلود⁽⁴⁷⁾.

وقد عبرت جبهة التحرير الوطني عن مفهوم الجهاد عند الجزائريين من خلال جريدة المقاومة حيث اعتبرت " الجهاد معناه مكافحة الظلم و مدافعة الطغيان و استرجاع الأفراد و الجماعات لما سلب منهم من حقوق، و هو فوق كل ذلك يُمل معنى التصميم القوي على السير نحو الكمال في جميع الميادين"⁽⁴⁸⁾، و بذلك وسعت جبهة التحرير الوطني من مفهوم الجهاد.

و الظاهر أن قادة الثورة تجنبوا ذكر مصطلح الجهاد في بيان أول نوفمبر، لعدة اعتبارات من أهمها الخوف من اعتبار الثورة الجزائرية حركة تعصبية أو حربا دينية، و بالتالي تأليب الرأي العام العالمي خاصة العالم الأوروبي المسيحي ضدها، و رغم ذلك حاولت فرنسا إخفاء وتحريف طبيعة الصراع الحقيقي، بتقديم تفسير ديني إلى درجة أن أصبح ساسة فرنسا و كأنهم ينادون بحرب صليبية جديدة من خلال ما كانت تتضمنه تصريحاتهم من تركيز على البعد الديني⁽⁴⁹⁾، و قد تصدت جبهة التحرير الوطني لذلك، فقد جاء في العدد الثاني لجريدة المقاومة العبارات التالية.. "إن ثورتنا تنسم بالطابع الديني حقا، لكن لا على المعنى التعصبي الذم الذي يحاول الاستعمار أن يلصقه بها زورا و بهتان بل على المعنى الإسلامي الأوسع السمح إلا و هو التحرر الكامل من جميع القيود التي تعرقل الإنسان عن البلوغ إلى أعلى درجات الكمال الممكن له، و ما الاستعمار في الحقيقة و الواقع صخرة كبيرة جامئة في طرق التقدم و الرقي في جميع ميادين الحياة، ولذلك نسع الأمة تدعو أبطالاً المكافئين "بمجاهدين" و تسمي كفاحهم التحرري "جهادا"⁽⁵⁰⁾.

منح البيان مكانة هامة للدين الإسلامي كعامل مهم و مؤكد للشخصية الإسلامية للمجتمع الجزائري، و في نفس الوقت دافعا ومحركا للمطالبة بالاستقلال و تحطيم النظام الاستعماري، و هو ما يعرف بالإسلام السياسي الذي شكل مرجعا و إيديولوجية محرّكة للمجتمع، فالإسلام لم يبق مرتبطا بالجانب العقائدي فحسب بل تعداه إلى المجال السياسي، بعد ارتباطه بفكرة المقاومة و التحرر، و رغم عدم تضمنه لمبدأ الجهاد بشكل واضح و صريح إلا أن جبهة التحرير دعت إليه من خلال كتابات قادتها و خطاباتهم، سواء في جريدة المجاهد أو في جريدة المقاومة.

من خلال هذه القراءة البسيطة في بيان أول نوفمبر 1954م، يتضح لنا انه كان يحمل بعداً دينياً تجلّى هذا البعد في المبادئ التي ذكرناها سابقا، كسلم، و الوحدة، و غيرها من المبادئ و التي حتى و لم يعبر عنها البيان بشكل واضح و صريح، إلا أنه يمكن قراءة هذه القيم في ثنايا البيان.

كما نلاحظ أن البعد الديني للثورة الجزائرية كان تجسيدا على أرض الواقع في سلوكيات المجاهدين، أكثر منه على المستوى التنظيري في نصوص الثورة و مواثيقها، فالشعب الجزائري الذي شكل قاعدة الثورة ووقودها الأساس، و الذي كان الإسلام إيديولوجيته، هو الذي أعطى هذا التفسير و هذا البعد الديني لمبادئ البيان و قيمه، وفق ثقافته الإسلامية المترسخة في العادات و القيم الجزائرية.

الهوامش:

- (1)النصوص الأساسية لجبهة التحرير الوطني(1954-1962)، وزارة الإعلام و الثقافة، الجزائر، 1979، ص ص (7-10).
- (2) محمد العربي ولد خليفة، " الثورة الجزائرية و مكاسها الباقية"، المصادر، العدد2، المركز الوطني للدراسات و البحث في الحركة الوطنية و ثورة أول نوفمبر 1954، الجزائر، 1999، ص 81.
- (3) للبشير الإبراهيمي، آثار البشير الإبراهيمي، ج5(1954-1962)، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1997، ص8.
- (4) فرحات عباس ليل الاستعمار، تر: أبو بكر رحال، الوكالة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 2005، ص275.
- (5) أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي-مرحلة الثورة-(1954-1962)، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2007، ص82.
- (6) محمد العربي الزبيري، حزب جبهة التحرير الوطني من الشرف إلى العلف-تشریح الأزمة-، ط1، دار الأمة، الجزائر، 2014، ص257.
- (7) المرجع نفسه، ص ص(289-292).
- (8) نفسه، ص286.
- (9) للتوسع حول مضمون البيان ينظر: محمد جفابة، بيان أول نوفمبر 1954 دعوة إلى الحرب، رسالة للسلام، قراءة في البيان، دار هومة، الجزائر، ص 27 و ما بعدها.
- (10) يوسف قاسمي، مواعيق الثورة (1954-1962)، أطروحة دكتوراه، جامعة الحاج لخضر، باتنة، 2008-2009، ص120.
- (11) محمد العربي الزبيري، المرجع السابق، ص291.
- (12) سورة النساء، الآية 90.
- (13) سورة الأنفال، الآية 61.
- (14) النصوص الأساسية لجبهة التحرير الوطني، ص10.
- (15) نفسه.
- (16) جريدة المقاومة الجزائرية لسان حال جبهة و جيش التحرير الوطني، العدد12، 5 جانفي 1957، ص3.
- (17) سورة البقرة، الآية 190.
- (18) سورة البقرة، الآية 194.
- (19) عامر رخييلة، "أبعاد و مفاهيم في بيان أول نوفمبر 1954"، المصادر، العدد 4، المركز الوطني للدراسات و البحث في الحركة الوطنية و ثورة أول نوفمبر 1954، الجزائر، 2001، ص70.
- (20) سورة آل عمران، الآية 103.
- (21) الزبيري، المرجع السابق، ص 290.
- (22) النصوص الأساسية لجبهة التحرير الوطني، ص9

تجليات البعد الديني في بيان أول نوفمبر 1954م -قراءة في البيان-

- (23) فتح الدين بن أزواو، إيديولوجية الثورة الجزائرية، رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في التاريخ، إشراف محمد العربي الزيري، جامعة الجزائر، 2000-2001، ص ص (79-80).
- (24) عامر رخيبة، المرجع السابق، ص 61.
- (25) النصوص الأساسية لجبهة التحرير الوطني، ص 9.
- (26) سورة المؤمنون، الآية 53.
- (27) النصوص الأساسية لجبهة التحرير الوطني، ص 9.
- (28) سورة البقرة، الآية 256.
- (29) سورة يونس، الآية 99.
- (30) للتوسع حول موقف الإسلام من الأقليات الدينية ينظر كتاب: يوسف القرزاوي، الأقليات الدينية و الحل الإسلامي، ط1، مكتبة وهبة، مصر، 1996، ص 27 و ما بعدها.
- (31) سورة الحج، الآية 40.
- (32) النصوص الأساسية لجبهة التحرير الوطني، ص 8.
- (33) عامر رخيبة، "البعد الإنساني في الثورة الجزائرية"، المصادر، العدد7، المركز الوطني للدراسات و البحث في الحركة الوطنية و ثورة أول نوفمبر 1954، الجزائر، نوفمبر 2002، ص 49.
- (34) جريدة المقاومة الجزائرية، العدد5، 12 جانفي 1957.
- (35) نقلاً عن سليمان الشيخ، الجزائر تحمل السلاح او زمن اليقين (دراسة تحليلية في تاريخ الحركة الوطنية و الثورة المسلحة). تر: محمد حافظ الجمالي، دار القصة للنشر، الجزائر، 2003، ص 401.
- (36) نفسه.
- (37) سورة البقرة آية 90-91.
- (38) الزيري، المرجع السابق، ص 290.
- (39) مالك بن نبي، آفاق جزائرية، تر: الطيب الشريف، مكتبة النهضة الجزائرية، الجزائر، (د.ت)، ص ص (215-216).
- (40) مداخلة صالح فركوس، "البعد الروحي للثورة الجزائرية"، الملتقى الدولي الأول حول تاريخ الثورة الجزائرية و الاستعمار الفرنسي (المنطلقات، الحقائق، و الأبعاد)، 11 و 12 ديسمبر 2016، جامعة 20 أوت 1955، سكيكدة، دار الهدى للطباعة و النشر، الجزائر، 2007، ص 144.
- (41) سليمان الشيخ، المرجع السابق، ص 399.
- (42) محمد صالح الصديق، البعد الروحي في ثورة نوفمبر التحريرية، موفم للنشر، الجزائر، 2014، ص 80.
- (43) سورة آل عمران.
- (44) الطاهر حليس، قبسات من ثورة 1954 كما عايشها العقيد الحاج لخضر قائد الولاية الأولى، شركة الشهاب، الجزائر، (د.ت)، ص 84.
- (45) أحسن بومالي، إستراتيجية الثورة الجزائرية في مرحلتها الأولى 1954-1962، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، (د.ت)، ص 85.

تجليات البعد الديني في بيان أول نوفمبر 1954م -قراءة في البيان-

- (46) سعد دحلب، المهمة المنجزة من أجل استقلال الجزائر، منشورات دحلب، الجزائر، 2004، ص ص (12-13).
- (47) أحمد بن نعمان، جهاد الجزائر حقائق التاريخ و مغالطات الجغرافيا، دار الأمة، الجزائر، 2014، ص 266.
- (48) جريدة المجاهد، العدد 8، أوت 1975، ص 3.
- (49) عامر رخيبة، البعد الإنساني في الثورة الجزائرية، ص 51.
- (50) جريدة المقاومة، العدد 2، 15 نوفمبر 1957، ص 2.